# العنف الرمزي

د. علي أسعد وطفة ❁

يتميز مفهوم العنف الرمزي بسحر الاستخدام وجمال التوظيف، وقد يكمن سحره الخاص في قدرته على التوليف بين نقيضين لفظيين مفعمين بالإثارة والقدرة على الإدهاش، فالعنف مفهوم وجداني يحرك في النفس شجون، والرمز لفظة تفيض بالإثارة وتتدفق بألق المعاني وتناغم الدلالات، إنها كلمة ترفل بقداستها وغرابتها وقدرتها على الإدهاش، وفي اجتماع اللفظتين واتحاد الكلمتين يجد المرء العاشق للمفاهيم والمولع بالكلمات نفسه

❁ أستاذ التربية السوري المقيم في الكويت (جامعة الكويت).

في أجواء رومانسية تتدافع فيها عذوبة المعاني وتتعانق معها أناقة الدلالات.

لقد وجد عدد كبير من المثقفين أنفسهم تحت تأثير التوظيف الجديد لمفاهيم حداثية جديدة مثل: العنف الرمزي، ورأس المال الرمزي، والسلطة الرمزية، والاعتباط الرمزي، فبدؤوا يستخدمون هذه المفاهيم على مبدأ الموضة الثقافية، ليضفوا على أنفسهم بهاء هذه المفاهيم الجديدة بما تمتلك عليه من غنج الكلمات ورنين الألفاظ وعذوبة المعاني.

وفي دائرة الاستخدام الثقافي المتواتر والمتعاظم لهذه المصطلحات الجديدة، غالباً ما تُحَمَّلُ هذه المفاهيم ما لا تحتمل من المعاني، وتشحن بما ليس لها من الدلالات، حيث أفقدتها موضة الاستخدام والتوظيف كثيراً من دلالاتها العلمية، وأفرغتها من بريقها المنهجي التي انطوت عليها في أصل الاستخدام العلمي.

لقد ولدت هذه المفاهيم في أتون فعالية سوسيولوجية تميزت بالجدة والأصالة، وتميزت بتوظيفاتها العلمية والدقيقة عبر النظريات السوسيولوجية الوليدة الجديدة، وتمَّ استخدامها في تحليل الأوضاع الثقافية للمجتمع بدقة ورشاقة وأهمية علمية تتميز بالدقة والوضوح والصرامة. وذلك على خلاف الاستخدام الثقافي السائد الذي يفقد هذه المفاهيم بريقها وتألقها العلمي.

**لقد شكل مفهوم العنف الرمزي مدخلاً سوسيولوجياً معاصراً من مداخل التحليل والتقصي الاجتماعي للظواهر الثقافية والاجتماعية**، ثم أخذ مكانه المميز بين المفاهيم التربوية والاجتماعية المعاصرة كأداة سوسيولوجية قادرة على فهم وتحليل أكثر جوانب الحياة الثقافية حضوراً وتواتراً. ويعد هذا المفهوم من المفاهيم الحديثة التي شهدت ولادتها في النصف الثاني من القرن العشرين في أعمال بورديو وباسرون في فرنسا، وقد وُظف في تحليل وفهم الأنساق التربوية والثقافية في مختلف تقاطعات الحياة الاجتماعية.

لقد أدى الاستخدام العام والساذج لمفهوم العنف الرمزي – على مبدأ الموضة – إلى إضعاف الدلالات الواضحة لهذا المفهوم وتفريغها من الاعتبارات السوسيولوجية لأصولها الفكرية؛ وقد يزيد في الأمر خطورة أن مفهوم العنف الرمزي غامض في أصوله، وهذا الغموض في أصل المفهوم وفي دورته الزمنية الاختمارية أو الكمونية شكل خميرة جديدة لغموض أكبر في مجال الاستخدام الثقافي العام السائد.

وهنا يجب علينا أن نعترف منذ البداية

أن مفهوم العنف الرمزي والمفاهيم التي تجاوره (الرأسمال الرمزي، والاعتباط الرمزي، والسلطة الرمزية)، ولدت غامضة وضبابية في صلب نظرية بورديو، ويجب علينا أن نعترف بالمشقة الكبيرة التي تواجه الباحث الجاد عندما يغامر بالدخول إلى المحراب الرمزي لنظريته التي تفيض بكثير من التعقيدات الفكرية والنظرية الناجمة عن توظيف مهيب ومثير للمفاهيم والمصطلحات الجديدة التي دخلت عالم السوسيولوجيا الثقافية المعاصرة كمفاهيم مركزية أصيلة.

وفي دائرة هذا الغموض والتعقيد يمكن الإشارة إلى الخلط العجيب في الاستخدام ما بين العنف الرمزي وبين الأشكال الأخرى للعنف، مثل العنف اللفظي، والعنف السيكولوجي، والعنف الإيمائي، والعنف الثقافي، والعنف اللغوي؛ **ففي كثير من الأحيان، يختزل العنف الرمزي إلى إحدى هذه الصيغ من العنف أو بعضها، وهذا لا يستقيم مع الدلالة السوسيولوجية الخاصة لهذا المفهوم.**

إن عناصر التشاكل والتداخل والغموض في مفهوم العنف الرمزي، تطرح نفسها أمام العقل العلمي كإشكالية فكرية ملحة، وتضع مفهوم العنف الرمزي نفسه على منصة الاستجواب السوسيولوجي وفقاً لنسق من التساؤلات المنهجية المنظمة التي تشكل في الوقت نفسه مدخلاً نقدياً لتحليل وظائفه الحيوية والكشف عن ملابساته ومدرجات غموضه في سياق اجتماعي تربوي محدد.

**مفهوم العنف:**

يتنوع مفهوم العنف سوسيولوجياً ويتعدد بصيغه الكلاسيكية المألوفة مثل: العنف الفيزيائي، والعنف السيكولوجي، والعنف اللفظي. وهناك أشكال وصيغ حديثة للعنف ظهرت في أتون التطور الفكري الحداثي مثل: العنف الثقافي، والعنف الأخلاقي، والعنف اللغوي، والعنف السياسي، والعنف الأيديولوجي، والعنف المقدس، **وأخيراً انبثق مفهوم العنف الرمزي كصيغة حداثية جديدة تثير الاهتمام والنظر. وقد شكلت الصيغ غير الكلاسيكية المهاد الطبيعي لولادة العنف الرمزي أو ما يمكن أن نطلق عليه العنف الذكي.**

فالعنف علاقة أولية بين القوة وممارسة القوة، وأي إفراط في استخدام القوة بغاية السيطرة والهيمنة (أو حتى الدفاع عن النفس) يتحول إلى عنف. وهذا المثال يتضح بما يسمى العنف الفيزيائي: استخدام القوة الجسدية في السيطرة على الآخر، أو في الدفاع عن النفس، مثل: الضرب

والشّـد والـركل والدفع والحـرق والقتل. وهـذا يعني بـأن العنف هو تحـول القدرة مـن حالة الوجود بالقـوة إلى حالة الوجود بالفعل بغاية السيطرة والهيمنة على الآخر. وهنا نلاحظ أن العنف مشروط بالغاية التي توظـف فيها القوة (الهيمنـة أو الدفاع عن النفس). وبالطبع فإن ممارسة العنف تكون بين طرفين وهـذا الأمر مشروع فيما يتعلق بالعنف الذاتي أو العنف المرتد إلى الذات.

وفي السيـاق الاجتماعي الاقتصادي أو السياسي فإن كل علاقـة مع الآخر ترتسم في صورة علاقة قوة وهيمنة. فالظلم ينجم عن خلل في ميزان القوى؛ إذ يجد الضعيف نفسه مكرهاً على طاعة القوي، حيث يعمل القوي على إلغاء الضعيف والسيطرة عليه. ووفقـاً لهـذه المعادلة يولد الصـراع ويأتي النضـال كمنهج لبناء علاقـات جديدة من القـوة من أجل إعـادة بناء التـوازن الذي يضمن احترام حقـوق الجميع. وهذا يعني بالضـرورة أن العمل من أجـل العدالة هو عمـل من أجل تحقيق التـوازن في مدارات القـوة، وهذا لا يمكن أن يكون إلا عبر القوة التي تعتمد ذاتها في إحداث الخلل وإسقاط التوازن.

وفي هـذا الخصوص يقـول المفكـر الفرنسي بـول ريكـو Paul Ricœur إن «العنف يتجه في مساره، بوضوح أو بغموض، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلى السيطرة على الآخر والهيمنة على مقدرات وجوده[1]. فكل عنف وفقـا لتصور ريكـو هو اعتداء على إنسانيـة الآخر، وبالتالي فإن أي عنف يشـكل عملية ضرر وأذى موجه ضد الآخر، وهذا يتضمن رفض الاعتراف بوجود الآخر وإنسانيته أيضاً.

فالرغبـة في إقصاء الخصم وإبعاده إلى دائـرة الصمت، ومن ثـم العمل على إلغائه تتحول إلى إرادة طاغية تتجاوز حدود الرغبة في المصالحة معه وبناء التوازن. وهنا تتعدد أشـكال العنف وصيغه التي تبـدأ بالإهانة والاحتقـار والإذلال، لتصل إلى التعذيب ثمّ الموت والإفنـاء. ووفقاً لهذه الوضعية يمكن القول إن النيل مـن كرامة الإنسان والطعن في أهليتـه الإنسانية يشكل طعناً في وجوده وكينونتـه، ونيلاً من حريتـه وكرامته. ولذا فـإن فرض الصمت علـى الآخر هو صيغة من صيـغ العنف، كما أن حرمـان الإنسان مـن حرية الـكلام، يعنـي حرمانه من حق الحياة نفسها. فالظلم الذي يحيق بالإنسان ضمن شروط اغترابيـة، تتمثل في الإقصاء والقهر، يشكل وضعية عنف مجسد ومجسم. فالعنف هنا لا يمثل كياناً ذاتياً قائماً بذاته، بل يوجد في وسـط اجتماعي محدد، حيث

يتخذ هيئته وصورته بين الناس والبشر وخارجهم أيضاً، ومع ذلك فإن الإنسان يبقى في النهاية المسؤول عن حضور العنف وممارساته المختلفة.

وهنا يمكن الإشارة إلى تعريف سيمون وايل Simone Weil الذي يرى أن العنف هو الفعل الذي يقوم به شخص ما لإخضاع الآخر والسيطرة عليه أو إفنائه، ولذا فإن ممارسة العنف حتى الحد الأقصى، تجعل من الإنسان مجرد شيء بالمعنى الدقيق للكلمة، ومثل هذا العنف القاتل يأخذ صيغاً متنوعة فيما يتعلق بإجراءاته وأدواته ونتائجه.

وإذ يقال اليوم إن العنف هو إساءة استخدام القوة والإفراط في توظيفها، فإنه لا غبار في القول: إن العنف يفوق ذلك ويتجاوزه؛ فالعنف بذاته أمر فظيع لأنه حالة اغتصاب لجسد الآخر وعقله ونفسه وكينونته الإنسانية. **فكل عنف هو تعسف وفظاظة وتدمير وقهر، لأنه ينال من الإنسان ويستهدف كيانه الإنساني ويخترقه ويوقع به ضحية له.**

**العنف الرمزي:**

يراد بالعنف الرمزي استخدام الرموز والدلالات والمعاني للسيطرة على الآخر وفرض الهيمنة عليه. ويأخذ هذا النوع من العنف صورة رمزية خفية ملتبسة تمكِّن مُمارِسُها من الوصول إلى غايته وتحقيق ما يصبو إليه من سيطرة وهيمنة دون اللجوء إلى القوة الواضحة والمعلنة. ويتغلغل هذا النوع من العنف في مختلف تجليات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية منذ أقدم العصور. ففي الحياة اليومية، غالباً ما يتم استخدام وسائل متعددة في السيطرة على قلوب الآخرين واستمالتهم وكسبهم، مثل: الكلمة الطيبة والابتسامة والإشارة والمعنى والمديح، وذلك لكسب قلوب الناس واستعبادهم. ويمكننا أن نسوق، ولغاية التدليل على معنى العنف الرمزي وماهيته ودلالته، نسقاً من الإشارات والدلالات الرمزية، التي وظفت وتوظف في مجالات الأدب والسياسة والحكمة والحياة العامة لتوضيح هذا النوع من العنف الرمزي الذي يفعل فعله المستتر الخفي في الإنسان ويضعه تحت إكراه الخضوع والانقياد على نحو رمزي.

لقد عُرِف العنف الرمزي، دون أدنى شك، في مختلف المراحل التاريخية للحضارة الإنسانية، وقد شكّل تاريخياً صورة من صور الممارسة السياسية في العصور القديمة والحديثة. ويتميز هذا العنف بذكائه وخبثه في الآن الواحد، حيث يتم توظيف آليات

ودلالات رمزية بهدف السيطرة على الآخر وإخضاعه أيديولوجياً وعقائدياً، وتفيض الحياة السياسية تاريخياً بالممارسات الرمزية لهذا العنف، ويمكن أن نستعرض نسقاً من المقولات والآراء التي تكشف لنا عن دلالة هذا العنف وفحواه وطبيعته.

لقد عرف العرب هذا النوع من العنف الرمزي في مختلف أنظمتهم السياسية، ولاسيما في العهد الأموي، حيث اعتمدت الدولة في ذلك العصر نوعاً من الأيديولوجية الرمزية التي عرفت بقدرتها على الاحتواء الجماهيري. ويمكننا أن نجد في تفكير الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان نموذجاً واضحاً لسلطة رمزية ولعنف رمزي محكم الدلالة واضح الصورة في المقام الذي يقول فيه: «**عجبت لمن يطلب أمراً بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة، ولمن يطلبه بحنق وهو يقدر عليه برفق، ألا ترى أن الماء على رقته يقطع الحجر على شدته**».

ويمكن أن نستعرض المزيد من القول السياسي الدال على تبني العنف الرمزي أداة ووسيلة سياسية عند سيد الدولة الأموية حيث يقول في مقام آخر: «**لا أستعمل سوطي ما دام ينفعني صوتي ولا أستعمل صوتي ما دام ينفعني صمتي**». فالصمت والرفق أبلغ من الصوت وأقدر من السوط على تحقيق الهيمنة والسيطرة، وهذا الصمت وذاك الرفق قد يكونا حجة دالة على معنى العنف الرمزي الذي يتخفى في صور ودلالات قادرة على تحقيق المراد والغاية من غير عنف أو إكراه أو قسر واضح بيّن صريح. وهذا التوظيف الرمزي ليس غريباً على باني الدولة الأموية الذي طبق قوله هذا الآفاق: «**والله لو كان بيني وبين الناس خيط عنكبوت لما انقطع فإن شدوه أرخيته، وإن هم أرخوه شددته**»؛ وفي هذا بيان عن غاية الذكاء في ممارسة السياسية الرمزية التي تقود إلى الهيمنة والسطوة والسيطرة المشروعة دون إكراه أو عنف واضح المعالم بيّن الدلالة صارخ الحضور.

ولم يكن معاوية هو الوحيد في تاريخ الفكر السياسي الذي لمّح إلى إمكانية استخدام الرفق والصمت والعنف الرمزي في تعزيز الهيمنة والسيطرة، فها هو الإمبراطور الصيني صان تسو يعبر عن حكمته الرمزية في قوله التاريخي المأثور «**إن المعرفة هي القوة التي تمكن العاقل من أن يسود، والقائد الخير من أن يهاجم بلا مخاطرة، وأن ينتصر بلا إراقة دماء، وأن ينجز ما يعجز عنه الآخرون**»[٢]. وقد قيل عن الدبلوماسية أنها «أن تقطع رقبة عدوك دون أن تستعمل سكين» وهذا مثال أكثر

وضوحـاً عن قوة العنف الرمزي وخطورته. فهناك وسائل خفية غير معلنة وذكية يمكنها أن تشـكل أدوات للقتـل والهيمنـة كما هو الحال في تعريف الدبلوماسية. وقد جاء في الحكمة العربية أيضا أنه «**يدرك بالرفق ما لا يـدرك بالعنف، ألا ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شدته**».

وقـد تضمن الأدب الإنكليـزي إشارات أدبية تدل علـى هذا النوع من العنف حيث يقول شكسبير: «**شـق طريقـك بابتسامتك خـير لك مـن أن تشقها بسيفـك**». وقد جاء في الشعـر العربـي ما يدل علـى استشعار الأدب العربـي لهذا النـوع من العنف حيث يقول الشاعر:

**أحسن إلى الناس تستعبد قلوبَهم**
**فطالما استعبد الإنسـانَ إحسانُ**

وقد تضمنت الأدبيات الشعبية ما يلمح إلى هذا النوع من العنف الذكي، حيث تقول إحدى مأثوراتها: «**استغن عمـن شئت فأنت نظيره، وأكرم من شئت فأنت أميره، واسأل من شئـت فأنت أسـيره**»، فإكرام الناس صورة من صور استخدام العنـف الرمزي في الهيمنة على الآخر والسيطرة عليه.

لقـد سقنـا بعضاً مـن هـذه الأقوال المأثـورة، لتسليط الضوء على مفهوم العنف الرمـزي، وتوضيـح دلالته الأوليـة، وذلك تمهيداً للتعريف بالمفهـوم ذاته في المستوى السوسيولوجي والتربوي. لقد بينت الحكمة الإنسانيـة التي تجلت في أقـوال صان تسو وشكسبير وغيرهم وهذه التي تضمنتها المثل والحكـم والمأثورات الشعبيـة، أن كثيراً من المظاهـر الرمزية للسلوك كالرفق والصمت والإحسان والابتسامة والإكرام وسعة الصدر والكلمة الطيبـة والمداراة واحـترام الآخر وتقديـره، يمكنها أن تمارس فعالية رمزية قادرة علـى أن تحقق مـا لا يفعله السيف ومـالا يمكن للقوة أن تفعله في سوس الناس والهيمنة عليهم دون تحطيم العظام وإراقة الدماء وهدر الكرامة.

هذه الأمثلـة توضح أمراً وهو أن أدوات العنـف تتمثـل في رأس مال رمـزي قوامه اللطف والرقـة والصمت والبشاشة والكرم والكياسة ورقة الكلمة وسحر اللقاء وغيرها من العناصر الرمزيـة التي يمكنها أن تكون أشـد فتـكاً مـن أدوات العنـف ومطارقه الثقيلـة. وما قدمناه في هـذا المقطع يقدم إشـارة إلى المعنى العـام والأدبي والسياسي في ما يتعلق بالعنف الرمـزي، وهذا يشكل مقدمة تبسيطية تمكننا من متابعة الخوض العلمـي في مفهوم العنف الرمـزي بأبعاده السوسيولوجية.

**سوسيولوجيا العنف الرمزي**

مهما تكن المصادر والينابيع الفكرية التي توجد في أصل العنف الرمزي، فإن هذا المفهوم يشكل أحد المفاهيم الأساسية لنظرية بيير بورديو، وقد شهد هذا المفهوم ولادته في نسق الفعاليات الفكرية لبيير بورديو Pierre Bourdieu وجان كلود باسرون Jean-Claude Passeron، حيث ظهر للمرة الأولى في كتابهما المشهور معاودة الإنتاج La Reproduction في عام ١٩٧٠.[٣]

يعرف بورديو وجان كلود باسرون العنف الرمزي في كتابهما إعادة الإنتاج «إن كل سلطة عنف رمزي، أي كل سلطة تفرض دلالات، وتظهر على أنها شرعية وقادرة على أن تواري علاقات القوة التي هي منها بمقام الأس لقوتها»[٤]. وفي مقام آخر يعرفه بورديو بأنه «أي نفوذ يُفلح في فرض دلالات معينة، وفي فرضها بوصفها دلالات شرعية، حاجبا علاقات القوة التي تؤصل قوته».[٥]

ويشكل هذا المفهوم منطلقاً ذهنياً للكشف عن الفعاليات الذهنية الأيديولوجية التي يمارسها المجتمع طبقياً لتشكيل عقول الأفراد، عبر سلطة معنوية كلية القدرة، وهذا يعني أن العنف الرمزي يرتدي حلة سلطة معنوية خفية تفرض نظاماً من الأفكار والدلالات والمعاني والعلامات بوصفها مشروعة؛ وفي كل الأحوال فإن هذه السلطة تعمل على إخفاء علاقات القوة الكامنة في أصل هذه السلطة أو في تكوينات العنف الرمزي عينه.

ووفقاً لهذا التصور فإن العنف الرمزي شكل من أشكال العنف الذكي، وصيغة سوسيولوجية متقدمه من تجلياته العلمية؛ حيث يمارس هذا العنف دوره وفاعليته الثقافية في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، ويتميز هذا العنف بخاصة الذكاء والقدرة على التواري، إنه نوع من العنف الذي يعيش في خفايا الحياة ويتخفى في ثناياها، إنه شكل من أشكال العنف المتخفي والملتبس والمتواري عن الأنظار.

وينزع العنف الرمزي إلى توليد حالة من الإذعان والخضوع عند الآخر بفرضه لنظام من الأفكار والمعتقدات الاجتماعية التي غالباً ما تصدر عن قوى اجتماعية وطبقية متمركزة في موقع الهيمنة والسيادة، ويهدف هذا النوع من العنف إلى توليد معتقدات وأيديولوجيات محددة وترسيخها في عقول وأذهان الذين يتعرضون لهذا النوع من العنف. فالعنف الرمزي ينطلق من نظرية إنتاج المعتقدات، وإنتاج الخطاب الثقافي، وإنتاج القيم، ومن ثم إنتاج هيئة من المؤهلين

الذين يمتازون بقدرتهم على ممارسة التقييم والتطبيع الثقافي في وضعيات الخطاب التي تمكنهم من السيطرة ثقافياً وأيديولوجياً على الآخر وتطبيعه.

والعنف الرمزي وفقاً لذلك هو القدرة على بناء المعطيات الفكرية بالإعلان عنها وترسيخها، كما أنه القدرة على تغيير الأوضاع الاجتماعية والثقافية عبر عملية التأثير في المعتقدات وتغيير مقاصدها، وبناء تصورات أيديولوجية عن العالم تتوافق مع إرادة الهيمنة والسيطرة التي تقررها الحاجات السياسية لطبقة اجتماعية بعينها،

**فالعنف الرمزي تعبير عن حضور رأس مال رمزي يتجلى في صورة عناصر ثقافية** (قيم، تصورات، أفكار، معتقدات، مقولات، إشارات، ورموز...الخ)، وبالتالي فإن رأس المال الثقافي ينزع إلى امتلاك السلطة الثقافية – أي المشروعية في الحضور والممارسة- وهذا يعني أن ممارسة العنف الرمزي مرهونة بوجود رأسمال رمزي، وبالتالي فإن هذا الرأسمال يُتوّج بسلطة رمزية تعبر عن مشروعيته، والمشروعية تعني هنا قبول هذه السلطة على أنها مشروعة وحقيقية من قبل هؤلاء الذين تمارس عليهم.[٦]

ومن أجل تقديم تصور بسيط للعنف الرمزي، وتحديد سماته ودلالاته وخصائصه، يمكن مقارنته بالعنف الفيزيائي أو المادي من حيث الآثار التي يتركها كل منهما، وفي هذا الاتجاه يرمي عبد الإله بلقزيز بدلوه للتمييز بين العنف المادي والعنف الرمزي حيث يقول «ثمة حاجة للتمييز بين نوعين من العنف هما: العنف المادي والعنف الرمزي. العنف المادي يلحق الضرر بالموضوع (الذي يمارس عليه العنف) فيزيائياً في البدن، أو في الحقوق، أو في المصالح أو في الأمن... إلخ. أما العنف الرمزي، فيلحق ذلك الضرر بالموضوع سيكولوجياً: في الشعور الذاتي بالأمن والطمأنينة، والكرامة والاعتبار، والتوازن»[٧]. ويتابع بلقزيز مقارناً بين عواقب كل نوع منهما فيقول «ولا يقل الثاني (أي العنف الرمزي) عن الأول في فداحة العواقب، وهو وإن لم يكن يمس حق الحياة لدى الفرد والجماعة -كما هو شأن العنف المادي أحياناً- إلا أنه قد يصيب المتعرض له في ما قد يكون مقدساً لديه، بل قد يكون هذا الضرب من العنف مرحلة نحو ممارسة العنف المادي، وعلى العموم، لا يختلف معنى العنف في هذا النوع عن معناه في الثاني وهو: انتزاع المطالب بالقوة، وإكراه الآخر على التنازل عنها أو الاعتراف بها».[٨]

وفي هـذه المايزة بين العنفين يتبين لنا بـأن العنف الرمزي قد يكـون أكثر فاعلية وقـوة في تحقيق الغايات التـي يسعى إليها مـن العنف الكلاسيكـي الفيزيائي في حال تحقيق النجاح. وهنا يجب أن نركز على أن مشروعية هـذا العنف قد تكون هي العامل الأهـم في تحقيق ما يمكـن أن يحققه من هيمنة وخضوع.

وبعبارة أخـرى، يمكن القول: إن العنف الرمـزي أكـثر قـدرة وفاعلية مـن العنف السياسي الأمنـي الذي تمارسه الدولة عبر رجـال الأمن والشرطـة في ظروف محددة، وإنه من أكبر أخطاء الكلاسيكيات الماركسية - كمـا يرى بورديو - «أنها لم تُعِرْ هذه القوة الرمزية الخفية اهتمامها ولاسيما هذه التي تمارس فعلها في المجال الاقتصادي».[٩]

وتأسيساً على هـذه المقارنة بين العنف الرمـزي والعنـف المادي يمكننـا من حيث المبدأ أن نعـرف العنف الرمـزي بأنه «كل سلطـة قادرة على فرض نظام من الدلالات والمعاني بوصفها مشروعة وذلك عبر عملية إخفاء علاقات النفوذ والقوة التي توجد في أصل هذه القوة ذاتها»[١٠]، وهذا يعني:

- أن العنف الرمزي يأخذ صورة سلطة تفرض نفسها على نسق من الأفراد.

- أن هـذه السلطة تفرض نظاماً من الدلالات والقيم والمعاني الرمزية.

- يأخذ العنف الرمزي صورته المشروعة بقدرته على إخفاء مقاصده وإخفاء علاقات القوة.

- يأخـذ العنف الرمزي صـورة خفية حيث يتغلغل تأثيره في وعي ضحاياه بصورة عفوية دون إحساس منهم بإكراهات العنف التقليدية.

- وأن هـذا العنف يأخـذ طابعاً رمزياً اعتباطياً. وهذه الاعتباطية ناجمة عن دور هذا العنف في تعزيز اللامساواة الاجتماعية وتأصيل الفـوارق الطبقيـة وإضفاء طابع الشرعيـة على معطياتها مـن أجل تمجيد طبقة اجتماعيـة بعينها لما تمتلك عليه من نفوذ وقوة وقـدرة اقتصادية وثقافية. وهي اعتباطيـة لأنهـا لا تقوم على أيـة معايير منطقيـة أو مبادئ أخلاقيـة أو فكرية من أي نوع. وهـذه السلطة الرمزيـة الثقافية «مشروعة» بمعيار ما تبـدو كنتيجة حتمية ناجمة عن عمليـة تجاهل مستمر وتبخيس دائم لأطفال الطبقات الدنيا في المجتمع.

هذا هـو «العنف الرمزي» الذي يحدثنا عنه عـالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو في كتابـه عن «الهيمنة الذكوريـة»، حيث يعلن بـأن العنـف الرمزي «عنـف شفاف هادئ

يخــترق عتبة البصر فلا تقع عليه العين ولا يــرى حتى من قبل ضحاياه»[١١]، ويقوم هذا العنــف على تأصيــل المشاركة بين الضحية والجلاد في نســق من التصــورات والرؤى والمقــولات والمعــاني والمفاهيــم والأفكار. فالعنف الرمزي هو الذي يفرض المسلمات التــي إذا انتبهنا إليها وفكرنا فيها بدت لنا غير ما هي عليه من مصداقية وأن التسليم بهــا كان خطأً فادحاً. وهي مسلمات تجعلنا نعتــبر الظواهر التاريخيــة الثقافية طبيعة سرمدية أو نظاماً إلهياً عابراً للأزمنة. ويعد العنــف الموجه ضد المرأة مــن أكثر مشاهد العنف الرمزي المقنّن عبر التاريخ الذي تعود ممارساته إلى أعمق أبعاد التاريخ الإنساني. وأشد أنواع العنــف الثقافي هو ذلك العنف الرمزي الذي يبــدو بديهيا، ويفرض نفسه على الضحية والجلاد والقاضي، ويقول عن نفسه: إنه ليس عنفا.[١٢]

ففي محاولة منا لتفســير مقولة بورديو حول العنف الرمزي في مجال العنف الموجه ضد المــرأة قمنا بتجربــة- ربما فريدة من نوعهــا ولكنها كانــت في صلب التجاوب مع هــذا النوع مــن العنف الرمــزي التاريخي المقــنن ضد المــرأة، لقــد سألنــا طالبات كليــة التربية في الفصــول المختلفة السؤال التالي: لمــاذا ترتدي المــرأة في دول الخليج وبعض الــدول العربية اللــون الأسود على الــدوام؟ فكانت الإجابة مدهشة جداً، لقد بينت أغلــب الإجابات لأن اللون الأسود هو اللــون الملوكي أو هو سيد الألوان أو هو لون الاتــزان. وكان السؤال الــذي يليه مباشرة: إذا كان اللــون الأسود سيــد الألوان، ولون الاتزان، فلمــاذا يرتدي الرجــال لوناً آخر هو اللون الأبيض؟ وهنا ترتسم الحيرة على وجوه الطالبات ولا يجدن إجابة موضوعية. ثم نحاور الطلاب بقولنا إن الطقس في دول الخليج العربي حار جداً واللون الأسود يمتص الحرارة ويزيد درجتهــا، فلم ترتدي النساء اللون الأســود؟ الطالبات يقدمــن إجابات غير منطقية وتأخذهــن الحيرة من جديد. بعض الطالبــات ردّدن القول إن هذه مجرد عــادات وتقاليد. نعم هي كذلك، ولكن لماذا العــادات والتقاليد تقرّ اللون الأسود للمرأة في الصيــف حيــث درجة الحــرارة عالية؟ ولماذا يرتــدي الرجل اللــون الأبيض الذي يصدّ موجــة الحرّ؟ وتبقــى الأسئلة حائرة دون إجابة شافية!!!

فاللون الأسود يرمز، عند أكثر الشعوب، إلى الحــداد والحزن والانقباض، إنه لون المــآتم والأحزان كما أنه لــون الظلام، وهو يرمز إلى الجهل والدونية عند أكثر الشعوب. أمــا الأبيض فيرمــز إلى الإشــراق والفرح

والطهارة والبراءة. في هذه الحالة فإن اللون الأسود رمز ثقافي يحطّ من شأن المرأة ويحاصرها لاشعورياً، وعندما ترتديه فإنها تتعرض لوضعية رمزية تبخيسية تتماثل مع الحزن والظلام والجهل والدونية والدنس. أما اللون الأبيض للرجل فيرمز إلى الترابط بين الرجل والنور والمعرفة والاستبصار والبراءة والطهارة.

ومما لا شك فيه أن المرأة لا تشعر بالعنف الرمزي الذي يمارسه اللون الأسود، بل تدافع عنه وتراه مشروعاً إن لم تعل من شأنه، وتسميه سيد الألوان. وهذا يعني أن المرأة لا تشعر بعنف اللون كما أنها لا تشعر بسلطته وضغطه، بل تتبناه فكرة وسلوكاً وتراه الأفضل، وهذا ما يبرره بوصفه عنفاً رمزياً ينساب في العقول والنفوس دون أن يشعر به ضحاياه ودون أن يستشفوا إكراهه وضغطه، وهذا ما يلمح إليه بورديو بالقول «إخفاء علاقات القوة كشرط أساسي من شروط العنف الرمزي». وهنا يمكن لنا أن نقول إن المرأة هنا تتمثل تصورات أيديولوجية رمزية تعطي للرجل الأهمية بينما تقلل من شأنها وهي تتمثلها بصورة خفية دون أن تشعر بها إطلاقاً.

فالهيمنة الذكورية نموذج للسيطرة الرمزية، وهي نتاج لما يمكن أن يسمى بالعنف الرمزي، وهو عنف ناعم غير محسوس وخفي عن هؤلاء الذين يخضعون لتأثيره، وهذه الفعالية الخفيّة للعنف تتم بتأثير الممارسة الرمزية في عملية الاتصال والمعرفة. ومما لاشك فيه أن هناك عدداً كبيراً من الفعاليات الرمزية التي تحاصر المرأة وتدفعها إلى تبني تصورات دونية حول ذاتها بفعل الأيديولوجية الذكورية.

**سلطة الرمز:**

يمتلك الرمز في ذاته عنفه الخاص ويتمثل عنفه في قوته وقدرته على التأثير، فهو يمتلك سحر الكلمة وجمال الصورة وروعة الدلالة ورشاقة الكلمة إنه شفاف ساحر غامض يمتلك سلطة جمالية. ووفقاً لهذه الصورة يأخذ العنف الثقافي والعقائدي والأيديولوجي صورة عنف رمزي يفرض نفسه في مجال القيم وحقل الرموز والدلالات والمعاني. فمنذ بداية التاريخ استخدمت الرموز في السيطرة على الكون الأعلى وضبط القوى الكونية (العالم الميتافيزيائي) التي تمتلكها، كما وظف في السيطرة على أقدار البشر وتحديد مصيرهم الاجتماعي. وكم كان الرمز عبر التاريخ أشبه بالضوء الذي تحترق به الفراشات عشقاً وانجذاباً وافتتاناً.

فالرمز ينطوي على قوة سحرية جمالية

مقدسة تهون في سبيلها النفوس والأفئدة والمُهج، فالعلم رمز للوطن، وهذا الرمز يحرك المشاعر والعواطف، ويدفع الجنود إلى الموت دفاعاً عن العلم كرمز لعزة الوطن وشرفه، ويفيض تاريخ المعارك الإنسانية وحروبها بصور الجنود الذين يقذفون أنفسهم على مشاطر السيوف وأسنة الرماح في سبيل الإبقاء على علم بلادهم مرفوعا. وهنا يكمن شكل من آلاف الصيغ التي تدل على القوة الهائلة التي يمتلكها الرمز في نفوس البشر.

والرمز كلي القدرة إذ يمتلك في ذاته على قوة سحرية في جوهره، كما يمتلك في ذاته على قيمة جمالية، فهو في جوهره قيمة جمالية، لأن الرمز إبداع فني في الأصل والمبتدأ، فالفنانون هم الذين يصوغون الرمز ويرسمون جماله، وهذه القوة الجمالية والسحرية ترفعه إلى مراتب القدسية، حيث كان الرمز ملهم الأسطورة وأداتها، وفي الأساطير تتألق الرموز بوهجها الأسطوري السحري الخلاق الذي يفتن البشر ويؤثر في سلوكهم.

ونظرا لما يمتلك الرمز في ذاته من طاقة وقدرة وقوة، فقد وظّفه الإنسان، منذ القدم، في استجواب العالم العلوي، عالم الأرواح والقوى الكونية العليا، وحاول عبر الرموز ذاتها أن يخاطبها، وأن يؤثر في سلوكها ليتجنب أخطارها وكوارثها. لقد أعمل الإنسان القديم مخياله الخصب في رصد القوى الميتافيزيائية من أرواح وآلهة وقوى كونية، فرصدها في رموز، وجسدها في علامات حسية، ورسم خيوطها في حكايات وأساطير، ومن ثم وظفها في السيطرة على حركة هذه القوى وتوجيهها وتجنب مخاطرها، فاخترع لها «الطواطم» والتعويذات والطقوس الاحتفائية والحركات والإشارات السحرية، وذلك كله من أجل ضبط أقدار هذه القوى وتوجيه تأثيرها ورسم أبعاد حركتها، وذلك لطرد الأرواح الشريرة، واستمالة الآلهة، وما شاكلها من قوى كونية، كان يراها كلية القدرة والاقتدار. **لقد حارب الإنسان القديم الوحوش الكاسرة والضارية بالعصا والنار والحجارة والحراب والسكاكين بوصفها قوى مادية، ولكنه لجأ إلى الرموز والمعاني كأسلحة هائلة للدفاع عن قدره إزاء القوى الكونية الميتافيزيائية.** وفي هذا يتضح أن الإنسان استخدم الرموز في صراعه مع القوى الكونية الأكثر قوة وفتكاً وعنفاً من القوى المادية المحسوسة الملموسة. وهذا يعني أن الإنسان القديم وجد في الرموز قوة هائلة، فوظفها في صنع الأقدار والمصائر الإنسانية. ووفقاً لهذه الرؤية كان

الإنسان القديم البدائي مدججا بأسلحته الرمزية من كلمات وإشارات وهمهمات ورقصات وتعويذات وطقوس سحرية واحتفالات طقوسية اعتقد أنها قادرة على طرد الأرواح والقوى الشريرة وجلب المنافع واستمالة عالمه «الأنيمي» والاستفادة من طاقته وقدرته. وعبر الرمز اعتقد الإنسان القديم أنه يستطيع أن يؤلب القوى الكونية بعضها ضد بعض وأن يستميل بعضا منها في حربه ضد بعضها الآخر، فنسج الأساطير المثقلة بالرموز التي تتحدث عن الآلهة والقوة والقضاء والقدر. فالرمز- في صيغة الاستخدام الإنساني الأول - كان يرمز إلى القوة والقدرة، وكان سلاح الإنسان ضد القوى الطبيعية والأنيمية في مواجهة الحياة والقدر.

ويمكن تلمّس قوة الرمز في التوظيف الإنساني في اتجاهين أساسيين، يتمثل الاتجاه الأول في تجريد الكون المادي إلى رموز ودلالات ومعاني وكلمات، ويتمثل الاتجاه الثاني في تجسيد الغامض والمعنوي والروحي والميتافيزيائي في علامات وإشارات وتعيّنات مادية.

وتبدو سلطة الرمز في النمط التجريدي وقوته واضحة للعيان حيث اختزل الإنسان موجودات الكون في رموز وإشارات لغوية وغيرها، فأتاح له ذلك أن يمارس سلطته في فهم العالم وفي الكشف عن أسراره. ومن غير الرموز يستحيل على الإنسان التفكير، كما تصبح العملية المعرفية في دائرة الاستحالة، ومن هنا تأخذ العلوم الطبيعية أهميتها الكبيرة حيث تأخذ هذه العلوم طابعاً رمزياً واضح المعالم كما نراه في الكيمياء والفيزياء والرياضيات. والسؤال هنا هل كان هناك ثمة إمكانية لظهور هذه العلوم وتطورها من غير الصيغ الرمزية التي اعتمدتها في بناء منظوماتها العقلية؟

لقد بيّنا، في البداية، أن الإنسان استخدم الرمز كسلاح في مواجهة القوى الكونية الخفية، حيث رسم ملامح هذه القوى عبر الرمز فجسدها وحاصرها وامتلكها نسبياً، واستطاع أن يتجنب بطشها عبر طقوسه الرمزية والسحرية المعروفة؛ لقد منح لكل قوة طبيعة كبرى رمزاً، وجعل لها إلها، فجسده في علامات ودلالات وإشارات، ثم رسم حركة الكون ودورته في أساطير رمزية، جعلت الكون البعيد الأعلى مفهوماً ومعلوماً ومحسوساً، فوضعه في دائرة الفهم إن لم يكن في دائرة السيطرة.

وإذا كان الإنسان القديم قد آمن، في حقيقة الأمر، بقدرة رموزه على تغيير المصير في عالم الآلهة والقوى الطبيعية غير

المرئية، فإنه حري به أن يؤمن بقدرة الرمز نفسه وفاعليته في التأثير على الإنسان نفسه، وهنا بدأت دورة إيمانه الاجتماعي بقوة الرموز وخطورتها في عالمه الإنساني ذاته. ووفقا لهذا التصور تطور الرمز الإنساني ليتحول إلى قوة ثقافية هائلة تمارس ضغطها وهيمنتها على فئات اجتماعية بعينها؛ لقد وجد منتجو الرموز -من كهنة وسحرة وعرافين- أنهم يستطيعون توظيف رموزهم هذه في السيطرة على وسطهم الاجتماعي، فشحنوها بالطابع المقدس، ووظفوها في تحقيق هيمنة طبقية واسعة وشاملة في مختلف العصور. وما زال الرمز يأخذ دوره الكبير كسلاح طبقي توظفه الطبقات الدينية والدنيوية في تكثيف السلطة والهيمنة والتمايز في المجتمعات الإنسانية.

لقد ظهرت أكثر استخدامات الرمز كقوة اجتماعية في حقل الكتابة، فعندما نتأمل في طبيعة التوظيفات الأولى للكتابة، سنجد بأنها قد وظفت في مجال تأكيد السلطة وتعزيز حضورها في المجتمع. لقد استخدمت الكتابة (وهي رموز أو أنساق رمزية) في وضع الكشوف المالية والقوانين وصوغ الأوامر والتعليمات، كما وظفت من أجل الضبط والمراقبة والمحافظة على رأس المال والممتلكات والخيرات المادية في مختلف العصور والمراحل التاريخية، كما أنها كانت أفضل أداة في السيطرة السياسية وفي تعزيز سلطة الأقليات على أكثرية البشر. (١٣)

ويمكن القول تأسيساً على ما تقدم بأن الرمز يفيض بقوته الذاتية، حيث فرض نفسه قوة هائلة في المخيال الإنساني، فعمل على بناء المعاني وتوليدها، وامتلك لاحقاً القوة العلمية فجعل المعرفة الإنسانية ممكنة والعلم متاحاً والحضارة كينونة قائمة؛ وتأسيساً على هذه الرؤية يمكن القول إن الرمز يجسد صورة رأسمال رمزي ويمكنه أن يتجلى في صورة سلطة رمزية قادرة على الفعل والتأثير في الحياة الاجتماعية والسياسية والروحية.

**خاتمة:**

عندما نتحدث عن السلطة فهذا يعني الحديث عن القوة المشروعة التي يمتلكها مجتمع أو مؤسسة أو فرد اجتماعي. فالسلطة هي القوة المشروعة اجتماعياً. وهذا يعني بأن الأمن والشرطة وأدوات الضبط الاجتماعي في الدولة تمثل أدوات مشروعة تستخدمها الدولة في فرض سلطتها ونظامها. ومن هنا فإن أي ممارسة للعنف تبدو مشروعة إذا كان هدفها المحافظة على سلامة المجتمع وأمنه، ووفقاً لهذا التصور فإن الرمز يمثل

سلطة مشروعة وعنفاً مشروعاً لأنه يعبر عن تصـور اجتماعي عـام، أي يحظى بإجماع أفراد المجتمع أو أكثرهم.

وفي هـذا السيـاق ينظـر بورديـو إلى «السلطـة الرمزيـة» من حيث هـي قدرة على تكويـن المعطى، عن طريـق العبارات اللفظيـة، ومن حيث هي قـوة على الإبانة والإقناع، وإقرار رؤية عن العالم أو تحويلها، ومن ثم قدرة علـى تحويل التأثير في العالم، وبالتـالي تحويل العالم ذاته. وهي في النهاية قوة سحرية تفوق في تأثيرها قوة المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، وذلك لما تمتلك عليه من قدرة على التعبئة. ويؤكد بورديو على مشروعية السلطة الرمزية لأنها تأخذ طابعاً فاعـلاً في حياة الناس: «إن ما يعطي للكلمات قوتهـا ويجعلها قادرة على حفظ النظام أو خرقه هو الإيمان بمشروعية الكلمـات ومن ينطق بهـا»[١٤]. فالمنظومات الرمزية باعتبارهـا أدوات للمعرفة تفرض نفسهـا كسلطـة، وسلطـة تربويـة، وهي بالتـالي تشكل سلطة لبنـاء الواقع وتغييره، إنها باختصار كما يراهـا دوركهايم أدوات للتضامن الإنساني والفعـل الاجتماعي في الآن الواحد.[١٥]

وتأسيساً على مـا تقدم يمكن القول إن السلطة تأخـذ صورتهـا الرمزية في مدى قدرتهـا علـى إدراك نفسهـا كسلطة، وفي قدرتهـا على اكتساب الاعـتراف بوجودها ومشروعيتها ومن ثم فإن فعالية هذه السلطة لا تتـم في نسق من الفعاليات الفيزيائية بل في نسق المعرفة والمعتقد.

إن السلطـة، مهمـا تكـن ضرورتها أو شرعيتهـا، تغـري مـن يمتلكهـا بممارسة التعسـف والعنف، وهي إغـراء يتملّك من يمارسها، وإن العنـف هو بالضرورة حصاد هـذه الغواية وذاك الإغـراء.[١٦]. فالحكام غالبـاً ما يسقطون فريسـة إغراء التعسف وغوايـة التسلـط، إذ إنـه يستحيـل على أصحاب السلطة ألا تكـون لهم أهواء، وألا يعشقـوا سلطتهم الخاصة، وذلك لأن وجود السلاح في اليّد يغري صاحبه بالقتل.

## الهوامش

1- Paul Ricœur, Histoire et vérité, Paris, Le Seuil, 1955, p. 227.

٢- بـركات محمد مـراد، ظاهرة العولمة بين رفض العرب والإسلاميين والترويـج الغربي رؤية نقدية، المنطلق الجديد، العدد الثالث، صيف- خريف ٢٠٠١، صص٢٠٥-٢٤٦، ص ٢٣٥.

3- Bourdieu P., Passeron J.C., La reproduction. Eléments pour une théorie du système

d'enseignement, Paris, Les éditions de Minuit, 1970.

٤- بيـــير بورديو وجان كلود باسرون، إعادة الإنتاج: في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة ماهر تريمش، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٠٢.

٥- بيـــير بورديـــو، العنف الرمزي، بحث في أصول علم الاجتماع التربـــوي، ترجمة نظير جاهل، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥.

6- Pierre Bourdieu Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Seuil, Paris, 1992 , p.123.

٧- عبـــد الإلـــه بلقزيز، العنف السياسي في الوطـــن العربي، المستقبل العربي، عـــدد(٥)، ١٩٩٦، صص(٦٨-٨٥)،ص٧٢.

٨- عبد الإله بلقزيز، العنف السياسي في الوطن العربي، المرجع السابق ص٧٢.

9- Pierre Bourdieu Réponses. Pour une anthropologie réflexive, Seuil, Paris, 1992 , p.141.

10- Bourdieu P., Esquisse d'une théorie de la pratique, Paris, Droz, 1972, p.18

11- -Bourdieu Pierre: La Domination masculine, Seuil, 1998, pp. 7 - 8

12- Bourdieu Pierre: La Domination masculine, Seuil, 1998, pp. 7 - 8

13- Lévi-Strauss, in Georges Charbonnier, Entretiens avec Lévi-Strauss, Paris, Union générale d>éditions, 1961, pp. 32 - 33.

١٤- بيـــير بورديو، الرمز والسلطة، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص٦٠.

١٥- بيير بورديو، الرمز والسلطة، المرجع السابق، ص ٥٤.

١٦- فريـــق من الاختصاصيين: المجتمـــع والعنف، ترجمة إلياس زحلاوي، منشـــورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٥، ص١٤٢.